

القيم والمعاني في مناسك الحج



الحج عبارة عن مجموعة من المناسك والشعائر، وحملة من الأفعال والأقوال.. تنتظم جميعها في أُطْر زمنية، ومكانية محددة، لتجسد بمجموعها معنى تعبدية، وعملاً تربويّاً يساهم في بناء شخصيّة المسلم، ويعلم على إعادة تنظيمها، وتحصيّن مسیرتها في الحياة، ويسدّد وجهتها ومسارها إلى الله.

فعبادة الحجّ بصيغتها العامّة من الأقوال والأفعال التعبديّة التي يمارسها الحاج توحّي للنفس بمعاني كثيرة فتشعرها بجلال الموقف، وروعه الخشوع والعبوديّة الله سبحانه، وتزرع فيها مكارم الأخلاق، وتقودها إلى استقامة السلوك، وحسن المعاشرة.

ففي كلّ فعل، ونداء، ومناجاة في مناسك الحج؛ رمز يوحّي إلى النفس بمعنى، وأداء يعبّر عن سرّ وغرض تستوحيه النفس في تعاملها معه.

فالإحرام، والتلبية، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفات.. الخ، كلّها أفعال ذات مغزى، ومشاعر ذات معنى عميق يجب أن يحسّها الحاج، ويتمثل معاينها.

لذا كانت قيمة الحج التعبديّة، وآثاره التكاملية على النفس والسلوك لا تتحقق بالمارسة الميكانيكيّة المميتة، والخالية من استلهام المعاني والقيم الكامنة خلف الممارسات الشكليّة، بل يحقق الحج أهدافه بوعي الحاج، وتفاعلاته نفسياً وفكرياً مع كلّ فعل يقوم به، أو نداء يطلقه، أو مناجاة يردّدها، وإلاً فإنّ الحاج سائح يتجوّل في عالم المشاهد والآثار، لم يحقّق من أهداف الحج شيئاً، ولم تنطبع على صفة نفسه منه عبرة.

وكم كان عميقاً وعي أولئك الأتقياء لمداليل الحج وأهدافه.

وكم كان رائعاً تصويرهم له، وتعبيرهم عنه، لأنّهم عاشوا حقيقة متفاعلة مع أنفسهم وأرواحهم، ولغة رمزية تنطق بها أحاسيسهم، ومشاعرهم.

ولنأخذ نموذجاً واعياً لهذا الفهم الفوري العميق لمضامين الحج، ومستوحياً منه، فنقرأ تفسير الإمام عليّ بن الحسين السجّاد (ع) حيث كشف عن المضامين الرمزية، والمعاني المستوحاة من كلّ أداء تعبدي في فريضة الحج.. تلك الفريضة التي يستشعر القارئ من تفسير الإمام لمناسكها أنّها وضعت ل تستوعب أهداف الإسلام ومعانيه، بطريقة حسّبية رمزية؛ يمارسها الحاج ضمن أكبر تجمّع بشري في رحاب العبادة والوقوف بين يدي الله سبحانه.

فقد روى عن الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين بن أبي طالب (ع) أنّه لما رجع من الحج استقبله أحد الحجاج (الشibli)، فقال له الإمام (ع): حجّت يا شibli؟ قال: نعم يا ابن رسول الله، فقال (ع): أنزلت الميقات وتجرّدت عن مخيط الثياب واغتسلت؟ قال: نعم. قال: فحين نزلت الميقات نويت أنّك خلعت ثياب المعصية، ولبست ثوب الطّاعة؟ قال: لا، قال: فحين تجرّدت عن مخيط ثيابك نويت أنّك تجرّدت عن الرّباء والنفاق والدخول في الشبهات؟ قال: لا.. قال: فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ قال: لا.. قال: فما نزلت الميقات، ولا تجرّدت عن مخيط الثياب، ولا اغتسلت.

ثم قال (ع): حين تنطّفت، وأحرمت، وعقدت الحج، ونويت أنّك تنطّفت بنور التوبة الحالصة ثمّ؟ قال: لا.

قال: فحين أحرمت نويت أنّك حرمت على نفسك كلّ محرم حرمه الله عزّ وجلّ؟ قال: لا.

قال: فحين عقدت الحج نويت أنّك قد حللت كلّ عقد لغير الله؟ قال: لا.

قال له (ع): ما تنظّفت، ولا أحرمت، ولا عقدت الحج.

ثم قال (ع) له: أدخلت الميقات وصلّيت ركعتي الإحرام ولبّيت؟ قال: نعم، قال: فحين دخلت الميقات نويت أزّك بنية الزيارة؟ قال: لا.

قال: فحين صلّيت الرّكعتين نويت أزّك تقرّبت إلى الله بخير الأعمال من الصّلاة، وأكبر حسنات العباد؟

قال: لا.

قال له (ع): ما دخلت الميقات ولا لبّيت؛ ثم قال له: أدخلت الحرم، ورأيت الكعبة وصلّيت؟

قال: نعم.

قال: فحين دخلت الحرم نويت أزّك حرمت على نفسك كلّ غيبة تستغيبها المسلمين من أهل ملة الإسلام؟ قال: لا.

قال: فحين وصلت مكة نويت بقلبك أزّك قصدت الله؟ قال: لا، قال (ع): فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صلّيت..

ثم قال (ع): طفت بالبيت، ومسست الأركان وسعيت؟

قال: نعم.

قال (ع): فحين سعيت نويت أزّك هربت إلى الله، وعرف ذلك منك عالم الغيوب؟ قال: لا.

قال: فما طفت بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت.

ثم قال (ع) له: صاحت الحجر، ووقفت بمقام إبراهيم (ع)، وصلّيت به ركعتين؟ قال: نعم؛ فصاح (ع) صيحة كاد يفارق الدنيا بها، ثم قال (ع): آه، آه. وقال: من صافح الحجر الأسود فقد صافح الله

تعالى، فا نظر يا مسكين ولا تضيع أجر ما عظم حرمته، وتنقض المصالحة بالمخالفة وفيم الحرام، نظير أهل الآثام. ثم قال (ع) : نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم أزّك وقف على كل طاعة، وتخلاّفت عن كل معصية؟ قال: لا.

قال (ع) : فحين صلّيت ركعتين نويت أزّك بصلوة إبراهيم (ع)، وأرغمت بصوتك أنف الشيطان؟ قال: لا.

قال (ع) : فما صاحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّيت فيه الرّكعتين.

ثم قال (ع) له: أشرفت على بئر زمزم، وشربت من مائها؟ قال: نعم. قال: نويت أزّك أشرفت على الطاعة، وغضبت طرفك عن المعصية؟ قال: لا.

قال: فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.

قال: أسيئت بين الصّفا والمروة، ومشيت وتراجعت بينهما؟ قال: نعم.

قال: نويت أزّك بين الرّباء والخوف؟ قال: لا، قال: فما سعيت، ولا مشيت، ولا تراجعت بين الصّفا والمروة.

ثم قال (ع) : خرجت إلى مني؟ قال: نعم.

قال (ع) : نويت أزّك أمنت الناس على لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا.

قال (ع) : فما خرجت إلى مني.

ثم قال (ع) له: أوقفت الوقفة بعرفة؟ وطلعت جبل الرّحمة وعرفت وادي نمرة، ودعوت الله سبحانه عند الميل والحرجات؟ قال: نعم. قال: هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله سبحانه، أمر المعارف والعلوم، وعرفت قبض الله على صحيفتك، واطّلاعه على سريرتك وقلبك؟ قال: لا، قال (ع) : نويت بطلوعك جبل الرّحمة وأن الله يرحم كل مؤمن ومؤمنة، ويتوكل على كل مسلم ومسلمة؟ قال: لا.

قال: فنويت عند النمرة أزّك لا تأمر حدّى تأتمر، ولا ترتجز حتى تنزجر؟ قال: لا.

قال (ع): فعندما وقفت عند العلم نويت أرّها شاهدة لك على الطاعات، حافظة لك مع الحفطة بأمر رب السّماوات؟ قال: لا.

قال (ع): فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرّحمة، ولا عرفت نمرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات.

ثم قال (ع): مررت بين العلمين، وصلّيت قبل مرورك ركعتين، ومشيت بمزدلفة، ولقطت فيها الحصى، ومررت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم، قال (ع): فحين صلّيت ركعتين نويت أرّها صلاة شكر في ليلة عشر تنفي كلّ عسر، وتيسّر كلّ يسر؟ قال: لا.

قال (ع): فعندما مشيت بين العلمين، ولم تعدل عنهما يميناً وشمالاً، نويت أن لا تعدل عن دين الحقّ يميناً وشمالاً، لا بقلبك، ولا بلسانك، ولا بجوارحك؟ قال: لا.

قال (ع): فعندما مشيت بمزدلفة، ولقطت منها الحصى نويت أرّك رفعت عنك كلّ معصية وجهل، وثبتت كلّ علم وعمل؟ قال: لا.

قال (ع): فعندما مررت بالمشعر الحرام نويت أرّك أشعرت قلبك أشعار أهل التقوى والخوف □ عزّ وجلّ؟ قال: لا.

قال (ع): فما مررت بالعلمين، ولا صلّيت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام.

ثم قال (ع): وصلت مني، ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصلّيت في مسجد الخيف، ورجعت إلى مكّة، وطفت طواف الإفاضة؟ قال: نعم.

قال (ع): فنويت عندما وصلت مني، ورميت الجمار أرّك بلغت إلى مطلبك، وقد قضى ربّك لك كل حاجتك؟ قال: لا.

قال (ع): فعندما رميت الجمار نويت أرّك رميت عدوّك إبليس، وعصيته بتمام حجّك النفيس؟ قال: لا.

قال (ع): فعندما حلقت رأسك نويت أرّك طهّرت من الأدناس، ومن تبعه بنـي آدم، وخرجت من الذنوب

كما ولدتك أُمّك؟ قال: لا.

قال (ع): أفعندي صلّيت في مسجد الخيف نويت أرزّك لا تخاف إلاَّ إِنَّمَا عزّ وجلّ وذنبك، ولا ترجو إلاَّ رحمة الله تعالى؟ قال: لا.

قال (ع): فعندي ذبحت هديك نويت أرزّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسّكت بحقيقة الورع، وأرزّك اتبّعت سدّة إبراهيم (ع) بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحانة قلبه وحاجة سدّته لمن بعده، وقربه إلى الله تعالى لمن خلفه؟ قال: لا.

قال (ع): فعندي رجعت إلى مكّة، وطفت طواف الإفاضة نويت أرزّك أفضت من رحمة الله تعالى، ورجعت إلى طاعته، وتمسّكت بودّه، وأدّيت فرائضه، وتقرّبت إلى الله تعالى؟ قال: لا.

قال له زين العابدين (ع): فما وصلت مني، ولا رميتم الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا ذبحت، ولا أدّيت نسكك، ولا صلّيت في مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقرّبت، ارجع فإِنَّك لم تحج. فطفرق (الشبلبي) يبكي على ما فرط في حجه، وما زال يتعلّم حتى حجّ من قابل بمعرفة ويقين».

وهكذا كان الأئمة من أهل البيت (ع) يؤدّون مناسكهم وعباداتهم، وهكذا كانوا يربّون المسلمين على فهم عباداتهم، والتفقة في دينهم؛ ليكونوا واعين لما يؤدّون، ومدركين لما يفعلون.

وهكذا يجب أن تمارس عبادة الحج بأفعالها التي فرضها الله سبحانه، فيدرك هدف كلّ فعل فيها، ومغزى كلّ شعار ومنسك.